www.kotobarabia.com

نصوص



رحلات

أحمد ابراهيم الفقيه



www.kotobarabia.com

رحلات

أحمد إبراهيم الفقيه

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

أفسحوا الطريق للفيلة!

كانت كامبالا مفاجأة لى.

ليس لفكرة خاطئة عن بداية الحياة فـى بلـدان الشـرق لإفريقي، ولا لقراءات قديمة عن الفيلة والأسود التى تتنـزه فى ساعات الضحى عبر شوارع المدينة الرئيسية بأفريقيـا.. كنت أتوقع أن أشاهد مدينة عصرية كغيرها من مدن العالم، حقا ليس فى حجم عواصمه الكبيرة، ولكمن مدينة بها كل ما فى المدن من مظاهر الحضارة فنادق ومصـارف ومطـاعم وأسواق وأبنية عالية وشوارع كبيرة.. لقد كانت كمبالا كذلك حقا، ولكن المفاجأة هذه الطبيعة الساحرة التى وهبها ا إلى هذه البلاد هذه الهضاب السبع الخضراء التى بنيـت فوقهـا أجمل أبنية المدينة وأجمل فنادقها، هذه البيوت التـى تحـيط بكل بيت منها حديقة غناء مليئة بالزهور والأشجار وأعشاش العصافير وفى ركن منها حوض للسباحة وأحيانـا ملاعـب للتنس والكرة الطائرة. ثم هذا البساط الأخضر من العشـب الذى يغطى كل شبر من الأرض، حتى لتكاد المدينة كلها إن تكون مجرد جنينة صغيرة يضوع منها عبير الأزهـار، ثـم

هذه الفنادق الراقية التى تملك الدولة أغلبها والتى تقدم خدمة راقية وتحتل أجمل المواقع فى المدينة.

كانت كمبالا مفاجأة لي.. وكيف لا تكون كذلك ونحن نقرأ فى كتب الجغرافيا عن سخونة الجو فى المناطق الاسـتوائية وعن الحر الذى لا يطاق هناك، ثم أفاجأ بأن أجمـل منـاخ شاهدته، هو فى أوغندة التى تقع على امتداد خط الاستواء بل إن الجبال التى تغطيها الثلج وهى مكة المتزحلقين على الجليد تقع مباشرة على خط الاستواء.

حقا إن الحياة فى كمبالا، تبدو الآن هادئة نوعا مـا فقـد ذهبنا إليها وقد غادرها على الفور أكثر من ستين ألفـا مـن الآسيويين البريطانيين ما زال الفراغ الذى تركـوه واضـحا وما تزال المتاجر والبيوت والأندية التى تركوها مقفلة فـى عاصمو أوغندا، وما زالت اللجنة المكلفـة بتسـليمها إلـى المواطنين الأوغنديين لم تفرغ من عملها بعد، كـذلك فـإن السياحة كانت أيضا موقوفة نتيجة لبعض الترتيبات الحكومية التى لن تسمح بقدوم الزوار إلا مه نهاية هـذا الشـهر. ثـم ونحن هناك أعلن الرئيس أمين قراراتـه بتـأميم الشـركات البريطانية التى تملك مزارع الشاى ومزارع التبغ وبعضـها

يملك مصانع السكر والبعض الآخر مزارع القطـن ويملـك بعضها الآخر مؤسسات إعلانية ودارا صحفية حيث تبلغ هذه التأميمات ما قيمته ثلاثون مليون دينار، وقـد بـدأ ملاكهـا الإنجليز يغادرون البلاد، إذا فهـو موسـم مـن المعـارك والتحولات الخطيرة فى تاريخ هذا الشعب الذى صـار لأول مرة يملك مقدرات وطنه وثروات أرضه حتى تلك البيـوت الكبيرة الفسيحة التى تمتد بحدائقها الغنـاء علـى الهضـاب كمبالا السبع صارت الآن ملكا لأبناء أوغندا بعد أن كانـت متاعا لكل أجنبى فى حين كان المواطن الأوغندى لا يسـكن إلا أكواخ الطين.

ولم تكن كمبالا وحدها هى المفاجأة.

فبعيدا عن كمبالا مئات الأميال فى مدن قريبة من حدود أوغندا مع زائير كنت تشاهد شبكات من الطـرق الحديثـة العصرية، فنادق واستراحات سياحية على أرقى المستويات.

وعلى مساحة تبلغ أكثر من ٧٠٠ ميل مربع تقع كبـرى الحدائق الطبيعية فى أوغندا وهى حديقة "الملكـة اليزابيـت" التى صار اسمها الآن حديقة "روانـزوري" فـى الجنـوب الغربى من أوغندا، وبجوار ملتقى بحرتين فى قلب الحديقـة

وعلى قمة إحدى الهضاب هناك شـيد فنـدق لإقامـة زوار الحديقة ومنها يطل الزائر على السهول الخضـراء الممتـدة التى لا يحدها البصر والتى تمرح فيها قطعان لا حد لها من الفيلة والغزلان وأفراس البحر والأبقار الوحشـية، وتسـمع أصوات عصافير الحديقة وطيورها وتراها علـى مختلـف الأشكال تعبر فى أسراب سماء الحديقة، وتجد شـبكة مـن الطرقات المسفلتة تمتد عبر أركان الحديقة وتنقلك إلى كـل جزء من أجزائها... وعندما تنتقل وسط الحديقـة وتجـوب أطرافها تفاجأ بأن قرى صغيرة قد شيدت فى قلب الحديقـة. حقا لقد اختارت مواقع لها بعيـدا عـن الجهـات المأهولـة بالحيوانات المفترسة ولكنها حياة ولا شك مليئـة بالأخطـار فإنهم قد تآلفوا معها وارتاحوا لها واخترعوا طرقا لمواجهـة أى احتمال سيئ.. والأغراب من ذلك أن تجـد فـى وسـط الطرقات وفى أكثر بقاع الحديقة خطرا أحد المواطنين يركب دراجته ويقطع الطريق مغنيا وكأنه يتفسح داخل حديقة بيته، لا شك أنه هو أيضا قد تآلف مع هذه الحيوانات وأنـه علـى معرفة بالتعامل معها والهروب منها لحظة الخطر، وفى أكثر بقاع الحديقة خطرا كانت تقيم مجموعة من عمال الطريـق

وهم على دراية بأسلوب المعيشة فى مثل هذه المنطقة، إنهـم فى الغالب لا يغادرون بيوتهم ليلا فالليل هو الوقت المفضـل الذى يأخذ فيه الأسد حريته فى التنزه عبر أرجـاء مملكتـه العريضة، أما فى النهار فإنه لا خطر طالما يسـيرون فـى مجموعات ولا يتحركون فرادى.

وتمتلئ طرقات الحديقة بإشارات المرور التى تمنح حـق العبور للفيلة، والفيلة فى الغالب ما تراها ترتع وديعة تحـط على ظهرها الطيور وتطوف من حولها الغزلان، وهى تسير فى قطعان كبيرة، ولم يكن مدير الحديقة الذى كان مرافقا لنا يحذرنا إلا من الفيلة التى تسير ومعها طفلها فهى أكثر أنواع الفيلة خطرا، وهى مصابة بمرض الوهم، فهى تظـن أن أى إنسان يقترب منها إنما يقصد إلحاق الأذى بوليدها لذلك فهى دائما شرسة وقليلة الأدب مع زوار الحديقة، ولقد تأكـد لنـا ذلك عندما قرأنا بعد زيارتنا للحديقة بأقل من أسبوع أن أحد السياح قد افترسه فيلة من هذا النوع عندما رأته يقترب بآلـة تصويره من طفلها، ظنت به شرا فقفزت نحـوه وهشـمت رأسه وآلة تصويره.

كينيا وكينياتا..

كينياتا بطل قصائد الشعر التى كتبها شعراء الإنسانية الكبار أمثال ناظم حكمت وغيره والذى قاد قبائل الماوماو وسط الأدغال الإفريقية فى معاركهم الشهيرة لتحرير كينيا من ربقة الاستعمار البريطانى والتى ألهبت معاركها خيالنا فى فترة مبكرة من العمر، فإذا فعلت به الأيام... ماذا حدث للمحارب القديم الذى كنا نسميه "السهم الملتهب" وإلى أين وصل ببلاده كينيا التى كنا نسميها "أرض الصراعات"...

كيف يبدو شكل كينيا الآن بعد رحلة طولها سنوات من عمر الاستقلال أو "الياهور" كما يسميه أبناء الشعب هناك.. وخلال عشرة أيام هى مدة إقامتى هناك، كانت الصورة تتضح أمام عينى يوما بعد يوم.. فقد تقاعد المحارب القديم وهجر إلى الأبد أفكاره القديمة عن العدل والحرية والكبرياء وأسلم نفسه إلى تيارات عالمية مشوهة، وضاع من ذهنه إلى الأبد الحلم الذى ألهب به خيال الشعراء والأدباء.. فها هو الوجود الأجنبى ما زال راسخا قويا ممثلا فى هذه الاحتكارات الأمريكية والإنجليزية والرأسمالية العلمية، وها هم مستشاروه الإنجليز يقودون أغلب أجهزة الدولة التنفيذية

ومؤسساتها الاقتصادية، وها هو النفوذ الصهيونى كأقوى ما يكون يربط بالسلاسل هذا الوطن الإفريقى إلـى معسـكرات الرجعية والرأسمالية..

ها هو المجتمع الجديد الذى حاول أن يبنيه كينياتا يعـود صورة طبق الأصل من مجتمع ما قبل الاستقلال، فها هـى أقلية حاكمة من أبناء الوطن تحاول أن تقوم بتقليـد الحكـام الأجانب فى عهد ما قبل الاستقلال أنشئوا فيما بيـنهم طبقـة تتمتع بكل الامتيازات وتحتكر لنفسها مزايا الحكم والثـروة، وتفتح هوة كبيرة من التفاوت الطبقى بينها وبـين الأغلبيـة الفقيرة المسحوقة التى تسكن أكواخها وتعـيش علـى تلـك الوجبة الشعبية "الماثوكى" التى هى لا شيء سوى كمية مـن الموز المطبوخ. وها هو جهاز فى السلطة ينشأ مليئـا بكـل أمراض الرشوة والفساد والصفقات المشبوهة يحتكر لنفسـه السياحة والتجارة والمزارع الكبيرة، بل إن ابن كينياتا نفسـه أحد الذين يملكون أكبر الأسهم فى معظم الشركات الأجنبيـة العاملة فى البلاد.. ومن هذا الطريـق نفسـه جـاء العـدو الصهيونى يمد أصابعه الأخطبوطية إلى السياسـة ويبسـط نفوذه على السياسيين فقد أنشأ وكالاته السـياحية وشـركاته

التجارية ومنح منصبا شرفيا لكل وزير فى الحكومة الكينيـة وراتبا يفوق بأضعاف راتبه الحكومي، فصار كل الـوزراء مجرد عبيد وأجراء فى أيدى الشركات اليهودية، وضاع إلى الأبد حلم كينياتا القديم فى بناء مجتمع حـر كـريم شـجاع، تسوده العدالة والرفاهية لكل أبناء الشعب..

ونيروبي، العاصمة، مدينة السياحة والتجارة، أنها أشـبه بمدينة من مدن الغرب الكبرى مليئة بالوكـالات السـياحية، وأرقى أنواع الفنادق والملاهى الكثيرة المنتشـرة فـى كـل مكان، والمطاعم والمقاهي، وطوابير لا تنتهى من السـياح، وكل هذه الموارد أو أغلبها حكر على شركات صهيونية هى التى بنت هذه الفنادق وأنشأت هذه الوكالات واستنغمت بجنى الأرباح الكثيرة التى تقدم شيئا تافها منها إلى المواطنين فـى شكل مشاريع إسكانية لكسـب مـودتهم والاسـتحواذ علـى عواطفهم.

أما أكثر الناس فى كينيا بؤسا، وأقلهـم تعليمـا، وأكثـر مناطقهم تعانى تخلفا شديدا، فهم المسـلمون هنـاك الـذين يشكلون بملايينهم الثلاثة أكثر من ربع السكان.. فـى كينيـا وفى مجتمع يحيا فى ظل الإرساليات التبشيرية والعنصريات

القبلية والدينية ... كان المسلمون يواجهون تحديا لعينا وظل أغلب أبنائهم يعانون الجهل والفقر، فقد أنشأت تلك الإرساليات مدارس فى كل مكان، ولم يكن المسلم ليجد مدرسة يرسل بأبنائه إليها، حتى عندما أسست الحكومة مدارسها فقد أحجم المسلمون عن إرسال أبنائهم إليها خوفا على تربيتهم الدينية من الضياع، ولم يكن يتوفر لدى الحكومة مدرسون لتدريس العقيدة الإسلامية، فأقتصر التعليم على حصص الدين المسيحى فقط، وعندما أنشأ المسلمون وبجودهم الشخصية مدارس خاصة بهم فقد كانت فى معظمها أشبه "بالزوايا" و "الكتاتيب" التى تعرفها فى بلادنا، إنها تقدم لك التربية الدينية ولكنها لا تقوم بتأهيلك للحياة فى مجالات العمل المختلفة أو تقدم لك مرحلة من التعليم تستطيع بعدها أن تواصل تعليمك العالى لينشأ من بين السكان المسلمين أطباء ومهندسون ورجال اقتصاد وإدارة وعلم وغيره، لا مدارس حديثه سوى مدرسة وحيدة للبنات أنشأتها الجالية الباكستانية فى نيروبي. وهذا ما جعل المسلمين هم أكثر سكان كينيا تخلفا.

ولقد قابلت فى كينيا مسلمين أشبه بأولئك المسلمين القدامى الذين نقرأ عن عظمتهم فى كتب التاريخ، أناس نذروا أنفسهم ومستقبلهم وعائلاتهم وأموالهم ودخلوا المعركة فـى سـبيل عقيدتهم الدينية، فقد كان التحدى كبيرا وعاشوا فى ظل هـذا التحدى وواجهوا بكل ما يملكون من قوة، أسسوا فـى كينيـا عشرات الجمعيات، بنوا فى نيروبى وحدها أكثر مـن سـتة مساجد، وأقاموا المدارس الدينيـة، ترجمـوا القـرآن إلـى السواحلية وطبعوه وقدموه للناس. أنشئوا المدارس الدينية فى كل مكان، كل ذلك بمعزل عن أى جهد أو عون خـارجي، بجهود فردية وذاتية سخروا أموالهم وأبناءهم لإنشـاء هـذه المرافق وخدمتها ولكنهم يعيشون معاناة قاسية مريـرة فـى سبيل ذلك كله، وأحد أكثر الحوادث تجسيدا للتحـدى الـذى يعيشونه، إنه فى قرى أغلب سكانها من المسلمين قريبة مـن الحدود الكينية مع الصومال، وبعد معارك ذهب ضحيتها عدد كبير من المسلمين ظـل آلاف الأطفـال المسـلمين يتـامى وانتهزت الإرساليات التبشيرية هذه الفرصـة فأقامـت لهـم الملاجئ، وأرسلت قساوستها ورهبانها لتبنى هؤلاء الأطفال، وتحرك المسلمون فى كينيا فجمعوا التبرعات فيمـا بيـنهم،

منهم من باع بيتا يملكه أو عقارا، وأنشئوا بجـودهم الذاتيـة مدرسة وملجأ للأيتام، وتأسست جمعيـة "المسـلم الصـغير" للإشراف على هذا المركز، وترك بعض الأطباء والمهندسين أعمالهم وتفرغوا لرعاية هؤلاء الأطفـال المسـلمين. وهـم يتحدثون بمرارة عن تجاربهم مع البعثات العربية الدبلوماسية فى نيروبي.. عن آلاف الوعود الكاذبة، وعن خيبـة الأمـل المريرة فى علاقتهم مع هؤلاء الدبلوماسيين وقد كنت بنفسى شاهد عيان لإحدى هذه الحالات التى ستكون موضوع حديث آخر إن شاء ا .

بريطانيا تنتظر كرومويل الجديد

لأول مرة تبدو فكرة أن تستولى الجيش على السلطة فـى الجزيرة البريطانية احتمالا قـابلا للنقـاش، فقـد وصـلت السلطات الحزبية والبرلمانية التى تقود البلاد إلى حالة مـن العجز الكامل إزاء ما ابتليت به البلاد من أزمات، وكأنه لـم تكف أزمة النفط التى هزت اقتصاد الجزيرة مـن جـذورها وهددت مجتمعات الصناعى بالخراب، فإذا بعمـال المنـاجم يعلنون إضرابا شل حركة الصـناعة والاقتصـاد وتشـبثت

حكومة المحافظين بكبرياء الحكام فرفضت تلبية مطالب عمال المناجم خوفا من أن تكون سابقة يعتمد عليها غيرهم من عمال، ووقفت تراقب العاصفة وهى تقتلع أشجار الحديقة وتهدد البلاد بالخراب وإذا بأكثر من ثلاثة أرباع مليون عامل يضاف إلى عدد العمال العاطلين يذهبون فى طوابير طويلة لاستلام العون الاجتماعى للعاطلين.

وإذا بإنتاج المعامل والمصانع يهبط إلى معدل لم تشهد الصناعة البريطانية له مثيلا فى العصر الحديث بعد أن فرضت الحكومة ثلاثة أيام عمل فى الأسبوع لكى تنفذ الصناعة من التوقف نهائيا إذا ما نفدت مصادر الطاقة التى تدير المحركات وارتفعت أسعار النفط وتضاعفت لتكون ضربة تأتى من الخارج تجعل ميزان المدفوعات البريطانى يمشى أعرج إلى الأبد، وصار مستحيلا مطالبة الحكومة بتثبيت الأسعار أو تثبيت الأجور مع ما يصيب موازنة الدولة من أمراض التضخم وأبى عمال القطارات إلا أن تكون لهم حصة فى هذه المحنة التى تمر بها البلاد فخاضوا سلسة من الهجمات الاضرابية التى كانت تهدد الحياة بالشلل مطالبين برفع الأجور بعدما أصاب الدنيا من غلاء ووقف النظام

البريطانى عاجزا عن تحقيق أى شيء وبدت آلة الحكم فـى بريطانيا غير قادرة على الفعل والحركة ومواجهة الموقـف وإنقاذ البلاد من الدرك الذى تهبط إليه.

ولأول مرة صارت فكرة أن يثور الجـيش وأن يتحـرك لإنقاذ البلاد فى مواجهة عجز الحكومات فكرة قابلة للنقـاش الجدى وليس مجرد المزاح والجيش البريطانى ليس بعيدا عن المآسى السياسية هناك فهو الذى دفعت به الحكومة ليواجـه ثوار الشعب الايرلندي، وهو الذى يدفع الثمن مقابل ما ينشـأ مع ايرلندى من أزمات، ولهذا فإنه لم يعد مستحيلا أن يخرج من بين صفوف الجيش (كرومويل) جديد مثل ذلك الجنـدى الشجاع الذى أطاح بالنظام الملكى وأعلن الجمهوريـة فـى بريطانيا منذ ثلاثمائة عام وحكم الجزيرة البريطانيـة لمـدة خمس سنوات وقد يأتى من جديد كرومويـل لآخـر يطـيح بعرش صاحبة الجلالة ونظامها وينشئ على أنقاضه نظامـا جمهوريا ينقذ الجزيرة البريطانية من هذا الانهيار.

الفكرة كما قلت لم تعد غريبة فقد اتخذتها إحدى الصحف الأسبوعية التى تصدر فى لندن موضـوع نقـاش وتعليـق وكانت أيضا موضوع مقال نشرته إحدى الصحف الأمريكية

لكاتب محافظ ونقلت صدى لهذا النقاش صـحيفة (التـايمز) اللندنية، فالمرحلة التى تمر بها بريطانيا مرحلة لـم تعهـدها الجزيرة من قبل، وكما وصفها محرر (نيوزويك) الأمريكية إنها مرحلة أسوأ من تلك التى عبر عنها تشرشل قبيل الحرب العالمية الثانية عندما قال:

(إنى أرى هذه الجزيرة الشهيرة وهى تهبط دونما مقاومة سلما يقود إلى جب مظلم) وإذا كان الأمر حينذاك يحتاج إلى حرب بريطانيا وعيها، فمن يا ترى يشعل لها حربا جديـدة ويضمن لها فيها الانتصار كما كان الحال قديما.. ومع ذلـك فإن شعب الجزيرة ليس حزينا إلى الحد الذى يظنه الإنسـان حقا إنه يعانى من كل هذا.. يعانى أزمات البطالـة وغـلاء الأسعار ومتاعب المواصلات وحالات الإظلام التـى تعـم الشوارع والمدن، وكان عليه أن يمضى أعياد الميلاد دون أن يضيء مدنه بالزينات ويقضى سهرته فى البيت دون أن يرى برامج الإذاعات المرئية التى صارت توقف إرسـالها عنـد العاشرة والنصف ويستغنى عن استعمال سيارته أغلب الوقت ومع ذلك فهو ليس حزينا، فقد صار يدرك أن عصرا جديـدا يولد الآن، وأن مجتمعات الغرب التى احتكرت لفترة طويلـة

التقدم العلمى والمستوى الراقى للمعيشة على حساب شعوب العالم الأخرى التى تعانى الفقر والمجاعات صار عليها الآن أن تشارك تلك الشعوب معاناتها وأن تتقبل شيئا من متاعب الحياة، إنه يدرك الآن أن الأشياء لن تعود أبدا إلى ما كانت عليه وإن ازدهار مجتمعاته الصناعية كان نتيجة لعمليات استنزاف لجهود وثروات وإمكانيات شعوب أخرى، وأن عليه منذ الآن أن يدفع بنفسه ثمن ازدهاره وأنه من حق تلك المجتمعات أن تستخدم مواردها فى تحقيق ازدهارها. كان للعبة قديما قوانين مجحفة كانت تضمن لورقة المغشوش الفوز المستمر لكن هذا العهد قد انتهى إلى الأبد ولن يعود، واللعبة الآن صارت أقل إجحافا إنها تضع فرص الفوز متساوية أمام كل رفاق اللعب، إنها لعبة شريفة عليه أن تحترم قوانينها ويقابل خسارتها بروح رياضية وهذا ما صار يدركه شعب الجزيرة البريطانية، وهو يرى أن اللعبة العادلة الآن هى أكثر إراحة لضميره وإنسانيته من الفوز بالورق المغشوش.

محاولة لبناء الجسر

لعل أهم ما يفاجأ به الإنسان الذى يذهب فى زيارة إلى عاصمة غربية هو هذا التغيير الكبير والسريع الذى يطرأ على العقلية الأوروبية أن أفكارا أو مفاهيم وتقاليد قديمة عاش عليها الغرب لدهور طويلة.. صارت تختفى الآن لتحل بدلا منها قناعة كاملة بضرورة أن يجد العالم أسسا جديدة للتعامل بين مختلف أجزائه، وأن تنشأ علاقة جديدة تقوم على الود والتفاهم ومعاملة الند للند كبديل لتلك العلاقة القديمة التى تعتمد على استغلال البلاد الفقيرة ونهب ثرواتها واستنزاف مواردها لبناء مجتمعاتها الصناعية، وإن الزمن الذى كان يتم فيه التعامل على أساس عمالقة وأقزام أو أقوياء وضعفاء أو دول متقدمة وأخرى متخلفة قد انتهى إلى الأبد وأن الوقت مهيأ الآن لأن ينشأ نوع من الرابطة الإنسانية التى تجمع بيننا جميعا وعلاقة جديدة تخدم مصالحنا جميعا.

فنحن نحتاج إلى بعضنا الآخر وحاجة العالم الثالث إلى الدول الصناعية ليست أقل أهمية أو إلحاحا من حاجة هذه الدول إلى خامات العالم الثالث، وإن هذه المصلحة التى تجمعنا اليوم لن يخدمها خلاف ينشب بين الطرفين، ولن

تخدمها الخصومة المتبادلة أو روح العداء أو الرغبـة فـى الانتقام أو الإصرار على السيطرة والاستغلال ولـن يجـدى معها الاعتماد على القوة بقدر ما تجدى علاقة جديـدة تنشـأ الآن تقوم على فتح جسور من الفهـم المشـترك والرغبـة الحقيقة فى خدمة الأهداف الإنسانية الكبرى التى تعيننا فـى بناء عالم يستتب فيه الأمن والإخاء ويتـوفر فيـه الطعـام واللباس والعلاج وحياة اليسر لكل الناس.

ولا شك أن أوربا لم تكن لتصل إلى هذا الفهم لولا الأزمة الأخيرة وكما عبر عنها أحد الصحفيين الذين التقيت بهم فى لندن قائلا: (لقد أهدى إلينا النفط العربى شهر صيام تعلمنـا خلاله الصوم فعندما كان الواحد منا يضطر إلى الاسـتغناء عن سيارته لبعض الوقت كان يذكر أولئك الذين لا يحلمـون بامتلاك سيارة، وعندما خفضنا التدفئة تذكرنا أولئك الذين لا يملكون فى بيوتهم تدفئة مركزية، وعندما صرنا نقتصد فـى بعض الوجبات تذكرنا أولئك الذين لا يجدون وجبـة طعـام على الإطلاق، وفوق هذا وذاك أدركنا أن ما ظنننـاه اكتفـاء ذاتيا كان سنبقى إلى الأبد بحاجة إلى الآخرين بـأكثر ممـا يحتاج الآخرون إلينا.

لقد أحست أوربا بالتقصير مع مشاكل العـالم الأخـرى، وأنها كانت أقل فهما وأضيق أفقا من الصورة التى يحتفظ بها العالم فى ذهنه عن رجل الأعمال الأحمر البشـرة المنـتفخ الأوداج الذى يرتدى قبعة ويضع فى فمه سـيجارا ويصـدر الأوامر والتعليمات، لقد انتهت تلك الصورة ولن تعـود فقـد جعلته الأيام أقل انتفاخا وسمنة مما كان عليه، وأكثرا تواضعا وبساطة، وتعلم كيف يستغنى عن السيجار وكيف يرفع قبعته عندما يلقاك وأدراك أن إصدار الأوامر والتعليمات لـم يعـد يحل المشكلة وإنما عليه أن يجلس للحديث معك ويبذل أقصى مساعيه لإقناعك.

لقد كان حرب النفط إيذانا بأن العالم الثالث مستعد لدخول المعركة من أجل السيطرة الكاملة على ثرواتـه والحصـول على ثمن عادل لموارد القوة التى بنى عليها الغرب تقدمـه، لكن أوربا زاهدة فى خوض صراع من هذا النـوع، ولهـذا خرجت تحمل الرايات البيضاء، وتعرض رغبتها فى السلام والصداقة كبديل للصراع والخصومات، وتبحث جـادة عـن أسس جديدة للتعامل بينها وبين بلاد العالم الثالث.

ولا شك أن الوطن العربى بالذات من بين بـلاد العـالم الثالث الذى يهمه أن يبنى مع أوربا جسورا من الفهم وتبادل المنفعة والمصالح على أسس من المساواة ومعاملة الند للند.

فقد صارت أوربا الآن أكثر قابلية لفهم قضـايا الـوطن العربى واستيعاب مشاكله ومعرفة الصورة الحقيقية لإنسـان هذا الوطن، وإذا كانت معاقل الصهيونية تعمل بقوة ضد هذا الفهم المشترك وتطويره وقطع الفرصة علـى أعـداء هـذه العلاقة الجديدة.

إن فى أوربا محاولة جادة لترميم الجسور المهدمة وإقامة جسر من التفاهم بينها وبين الوطن العربى بعد أن أدركـت مدى حيوية الموارد التى يملكها هذا الوطن بالنسبة لتقـدمها ونهضتها الصناعية.

قلق الثوار وصبر المزارعين

الثورة هى هذا القلق النبيل.. العظيم.. هذا القلـق الـذى يجعلنا نرى مظاهر التخلف وأوجه النقص والتقصـير فـى جوانب الحياة من حولنا فتتملكنـا رغبـة عنيفـة عارمـة كالإعصار فى أن نقتلع هذا التخلف من جذوره.. وأن نحيله

على الفور إلى تقدم وازدهار، وأن نرى كل الخرائب قد اختفت فجأة وتحولت أمام أعيننا إلى بناء شامخ كبير، وأن نرى الأحلام الكبيرة والآمال العريضة وقد تحولن إلى حقائق نعيشها كل يوم.

ولكن هذا القلق النبيل لكى يكون مثمرا حقا وإيجابيا ونافعا وخصيبا فلا بد أن نعرف كيف نطعمه بشيء من الصبر الذى يشبه صبر المزارعين.. وهى بلا شك مهمة عسيرة أن يروض الثائر نفسه التى تتفجر رغبة فى التغيير السريع على هذا الصبر ويعلمها أن ترقب الأشياء فى تحولها البطيء.. ولكن هذه هى سنة الحياة وهذا هو قانونها.. فعندما تغرس شجرة الزيتون فإنك تخطئ إذا ظننت أنك سوف تأكل ثمارها فى صباح اليوم التالى أو حتى فى مطلع العام القادم أو الذى يليه.. إن عليك أن تتعلم كيف تنتظر السنوات الطويلة حتى تر لها ثمرا، وعندما تذهب إلى الحرث وتزرع بذور الحنطة فإنك لا تستطيع أن تذهب بمناجلك فى اليوم التالى لكى تحصد السنابل وتجنى المحاصيل.. إن عليك أن تنتظر فصلا وراء الآخر لكى تصير البذور سنابل.. ونحن كثيرا ما ننسى هذه الحقيقة.

كثيرا ما نذهب إلى الحرث ونزرع بذور حنطتنا وعندما ننتظر أسبوعا فلا نرى نتيجة سريعة لها نصاب بخيبة أمل شديدة، وندعو من جديد إلى أن يخرج الناس محاريثهم ونذهب لكى نحرث الحقل مرة أخرى.. وننسى أن تلك البذور المدفونة تحت الأرض تحتاج إلى فصل كامل حتى تفلق بأغصانها الخضراء بطن الأرض وفصل آخر حتى تنبت سنابلها وإن موسم الحصاد هو موسم لآخر غير موسم الحرث. ولهذا فنحن لا نستطيع أن نذهب إلى الحرث كل أسبوع.

حقا.. إن علينا إلا ننسى أن هذه البذور التى زرعناها، أو هذه النبتة التى غرسناها، علينا أن نتعهدها بالرعاية والعناية وأن ننزع من حولها الأعشاب الطفيلية التى تمتص قوتها، وأن نسقى جذورها.. وننتظر ونصبر عليها فصلا وراء الآخر وعاما وراء الثانى حتى تنمو وتنضج وتؤتى ثمارها.

بل إن الأفكار التى نريد بالثورة أن نزرعها والسلوك الذى نريد بالثورة أن تغرسه فى نفوس الناس.. والآمال العريضة التى نريد بالثورة تحقيقها تحتاج وقتا وزمانا وصبرا هو بلا شك أكثر من صبر المزارع الذى رمى فى

الأرض نواة وانتظر السنين الطويلة حتى صارت النواة نخلة أو الغرسة شجرة كروم أو زيتون.. بل لعـل بعـض هـذه الأفكار يحتاج لا إلى عام وراء عام.. بل إلـى جيـل وراءه جيل حتى ترسخ وتتأكد وتصبح وقائع وحقائق وسلوكا.. هذه ملاحظات أردت أن أقولها وفى ذهنى هذا القلق الذى يعمـر قلوب الناس ويجعلهم لا يصبرون علـى التجربـة طـويلا ويستعجلون نتائجها كمن يريد أن يذهب إلى حـرث الحقـل الذى منذ أسبوع واحد فقط من حراثته.

أين يذهب السفراء؟

رأيت فى كينيا غيابا مخجلا للدبلوماسية العربيـة، ومـع وجود هذه النسبة الهائلة من المسلمين الذين يؤمنون بالقضية العربية إيمانهم بالحياة، ومع وجود فـرص كثيـرة للعمـل السياسى وتقديم وجهة النظـر العربيـة ومناقشـة النفـوذ الصهيونى هناك أو مع أهمية كينيا كإحدى أكثر بلاد أفريقيا تقدما، ومنها تصدر أكثر الصحف نفوذا فى القارة الإفريقية، فإن هذا الغياب شيء يضر بالقضية العربية ويفقدها موقعـا من أكثر المواقع أهمية، ولقد كنت بنفسـى شـاهدا لإحـدى

المناسبات التى كان غياب الدبلوماسية العربيـة فيهـا شـيئا مشهودا وملحوظا، فقد نظمـت إحـدى أكبـر الجمعيـات الإسلامية هناك، مؤتمرا عن التعليم فـى الإسـلام فقضـية التعليم هى إحدى أكثر القضايا إلحاحا لدى المسلمين هنـاك، حضر المؤتمر وفود تمثل الجمعيات والمؤسسات الدينية فـى كينيا وحضرها ممثلون عن المجالس الإسلامية فـى بلـدان شرق إفريقيا. وكان هذا هو أول مؤتمر فى تاريخ الحركـة الإسلامية فى تلك البلاد. افتتح المؤتمر وزير التعليم الكينى، وشهد افتتاحه شخصيات رسمية وبرلمانية ورؤساء تحريـر الصحف وسفراء بعض الـبلاد الإسـلامية مثـل سـفيرى الصومال وباكستان، ورغم أن بطاقات الدعوة قد ذهبت إلى كل السفراء العرب هناك، فإن سـفيرا واحـدا لـم يتكـرم بالحضور، أو إرسال مندوب عن سفارته إلى هذا المؤتمر لا السفير المصري، ولا السـفير الكـويتي، ولا العراقـى ولا مندوب الجامعة العربية، وهم كل مـا لـدينا مـن ممثلـين دبلوماسيين هناك، وقد كانت أحاديث المؤتمرين هنا تعكـس خيبة الأمل مع هذه السفارات فهم فى خصم المعركـة التـى يخوضونها ضد الإرساليات التبشيرية والتيارات العنصـرية

غالبا ما يتجهون بأبصارهم صوب ممثلينا السياسـيين فـى نيروبي.. ولا يعودون بسوى المرارة وخيبة الأمل.

ولقد كان غيابهم فى تلك المناسبة شيئا مؤسفا، فهى إحدى أهم المناسبات التى يلتقى فيها المرء بجزء من الرأى العـام الإفريقي، وجنود يخدمون القضية العربية ويدافعون عنهـا، ويؤمنون بعدالتها ويتحمسون لها حماسا أكثر مـع أصـحاب القضية أنفسهم. وكان هذا موضوع حـديث مـع أصـحاب الصحف وبعض المسئولين فى إذاعة كينيا، ففى حين تعمـل السفارة الإسرائيلية على الوصول إلـيهم وتقـديم الـدعوات المستمرة لهم لزيارة إسرائيل وتمطرهم وتمطـر محـرريهم بالكتب والنشرات والرسائل فإن السفارات العربية لا تحـرك ساكنا كأن الأمر لا يعنيها فى شيء.

إن كثيرا من الذين يقودون الرأى العام فى الصحف هـم من الآسيويين الذين يحملون الجنسية الكينية، أما الـذين لـم يحصلوا على الجنسية بعد فهم يعيشون تحت رعب أن يصدر قرار بطردهم من البلاد لذلك فإن معظمهم قـد هيـأ نفسـه للرحيل، وحزم حقائبه استعداد لتلقى الإشارة، وبعضهم قـد سافر قبل مجيء الإشارة، فإن ما حدث فى أوغنـدا قـد دق

أمامهم ناقوس الخطر، إن جومو كينياتا نفسه فى حديثه للأمة يوم عيد الاستقلال فى ديسمبر الماضى أشار إلى أن الاقتصاد الكينى يجب أن ينتقل إلى أيدى أبناء كينيا. وهذا يحدث الآن بطريقة بطيئة وهادئة. فكينيا تعرف أنها لا تملك حتى الآن الطاقة البشرية التى تعوضها فى ذهاب الأسيويين، ولكنها تحت الضغط الشعبى صارت تبذل محاولات لتمكين أبناء كينيا من احتلال مواقعهم فى حقول الصناعة والاقتصاد. إن كثيرا من الرخص التجارية للآسيويين صارت السلطات ترفض تجديدها، وكثير من الآسيويين صاروا يأخذون زمام المبادرة ويبحثون لأنفسهم عن شريك وطنى فى التجارة.. أما الأغلبية منهم فهم يبيعون الآن أملاكهم ويبحثون عن مكان آخر لإقامتهم خارج أفريقيا.

وتبقى المشكلة فى كينيا أكبر من كل ذلك، إنها ليست مشكلة جالية أجنبية استولت على الاقتصاد الوطنى وقطعت الفرصة على الآخرين من أبناء الوطن.. إنها بالدرجة الأولى مشكلة أبناء الوطن أنفسهم، مشكلة هذه الهوة من التفاوت الطبقى بين الأبناء أنفسهم التى تزداد كل يوم اتساعا، مشكلة غياب نظرية تكفل للمجتمع تحقيق نوع من العدالة

الاجتماعية بين الناس وتمنح حق الفرص المتكافئة لكل أبناء الوطن.

تبقى مشكلة كينيا فى هذه الأقلية التى استحوذت على السلطة والثروة معا، وقطعت الفرصة على الأغلبية من أبناء الشعب فى التمتع بخيرات الوطن.. إنك بقرار واحد تستطيع أن تطرد الجالية الأجنبية من بلادك.

ولكن تبقى العبرة دائما بالنتائج ففى ظل هذا النظام وفى غياب النظرية الاجتماعية.. هل سيعود ذلك بالفائدة على كل أبناء الشعب أم يصبح مجرد مزيد من الامتيازات والثروة لمن يملك الامتيازات والثروة.

هذا هو السؤال..